فنون المرأة النثرية ذات الاتِّجاه السياسي في كتاب العقد الفريد دراسة تحليلية

إعداد:

مها حمود فالح الحقباني

معيد في جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز-كلية العلوم والدراسات الإنسانية بالأفلاج

فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي في كتاب العقد الفريد–دراسة تحليلية.

المُلخَّص باللغة العربية:

تأتي أهمية هذا البحث في كونه يدرس فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي في العقد الفريد، والتي قد تناولها البحث بوساطة عرض الفنون النثرية الأدبية للمرأة، وهي: الخطب، والرسائل، والأجوبة المسكتة، وبيان جوانب مشاركة المرأة بوساطة استقراء النصوص النثرية للمرأة للوقوف على علاقتها بالجانب السياسي، وبيان دورها ومكانتها، إضافةً لقيمة هذه النصوص في كتاب العقد الفريد.

الكلمات المفتاحية: أدب المرأة، المرأة والسياسة، العقد الفريد.

الملخص باللغة الإنجليزية:

The importance of this research that it studied the political side of the arts of women literature in Al-Iqd Al-Fareed. The research dealt with those arts by presenting the literary arts of women which are: speeches, messages and responses. In addition, the research explained the aspects of women's participation by extrapolating women's literature texts to determine the relationship of those texts with the political aspects. And it showed the importance of women role in politics and society which is going to add more value to those texts in Al-Iqd Al-Fareed.

Keywords: Women's Literature, Women and Politics, Aliqd Alfareed.

مقدمة:

شهدَ التاريخُ عددًا كبيرًا من النساء اللاتي أثَّرن في الحياةِ السياسية والاجتماعية والأدبية، وحفلتْ كتب التاريخ والأدب بهنَّ سواءً كنَّ أديبات أو شاعرات عبَّرن عن أهمِّ القضايا التي تعرَّضْنَ لها في شؤون حياتِهنَّ الخاصة أو العامة في بيانٍ وفصاحة.

ويُعَدُّ كتاب العقد للمؤلف: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨هـ) من المصادر الأدبية ذات المكانة الرفيعة في الأدب في القرن الثالث؛ حيث حوى نِتاجًا أدبيًا كثيرًا ومتنوعًا. ولأهمية هذا الكتاب اخترتُ دراسة فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي.

ويتكوَّن كتاب (العقد الفريد) من خمسةٍ وعشرين كتابًا، كلُّ كتاب يتكوَّن من جزأين، فيكون بذلك خمسين جزءًا في خمسةٍ وعشرين كتابًا، وأسماها بأسماء جواهر كريمة [١]. أما عن فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي فقد جاءتْ في كُتبٍ محددة، وهي: كتاب الخطب، كتاب الجمانة في الوفود، كتاب العسْجَدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، كتاب اللؤلؤة الثانية في السلطان، وأخيرًا كتاب المُجنِّبة في الأجوبة.

(١) انظر: الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، حققه وشرحهُ وعَرف أعلامهُ: محمد التونجي، دار صادر-بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م،١/ ٢٩.

مشكلة البحث وأسئلته:

تكمن مشكلة البحث في الأسئلة التالية:

_ما نوع حضور نصوص المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي؟

–ما نوع الفن النثري الذي عبَّر عن اتجاه المرأة السياسي؟

_ كيف بَدَتْ مكانة المرأة المشاركة في الرأي العام آنذاك أو ما يمكن تسميته بالسياسية؟

–ما قيمة نصوص المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي في كتاب العقد الفريد؟

حدود البحث:

دراسة فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي في كتاب العقد الفريد كاملاً، واستقراء النصوص في النسخة التالية:
الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، حقَّقَهُ وشرحهُ وعَرَّف أعلامهُ: محمد التونجي، دار صادر–بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م.

منهج البحث:

تقتضي هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في تناول فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي، باستقراء النصوص في كتاب العقد الفريد، والوقوف عليها وتحليلها وبيان دور المرأة فيها، والإشارة في الهامش إلى النصوص التي لم تتناولها الباحثة، إضافة إلى التَّحَقُّقِ من بعض نصوص المرأة المتعلقة بأمهات المؤمنين مِن جانب صحة نسبتها وثبوتها وعدمه.

أولاً: الخطب:

ضمَّنَ الأندلسي في كتاب الخطب خطبةً واحدةً للمرأة، وهي لعائشة– رضي الله عنها– في يومِ الجمل [1]، وقد وصف الأندلسي الخطب في قوله:" واعلمْ أنَّ جميعَ الخطب على ضربين: منها الطّوال، ومنها القصار، ولكلّ ذلك موضعٌ يليقُ به، ومكانٌ يَحسُنُ فيه" [2].

واتَّصفَتْ خطبةُ المرأة في كتاب العقد التي صنّفها المؤلف في كتاب (الخطب) بأنَّها ذات مضمون عام، يتعلَّقُ بمناقشة المرأة لأمورَ الشأن العام آنذاك بالتوجيه والإرشاد لرأيٍ ما، كخطبة عائشة–رضي الله عنها– في يوم الجمل، حينما قالت فيها:" أيُّها الناس، صَهْ صَهْ[3]، إنَّ لي عليكم حُرمة الأمومة، وحقّ الموعظة، لا يَتَّهمني إلا

([1]) انظر: الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الخطب،١٢٣/٤، وذكرها مرة أخرى في كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، يوم الجمل، ٣٠٠/٤. وقد ورد فيها عدة روايات، وهي منسوبة لعائشة–رضي الله عنها–في المصادر الأدبية المعنية باللغة والأدب، انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد، ط١، ١٣٩٧هـ،٤٥٥/٢–٤٦١، وانظر: ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، صححه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨ م، ص ٧–٩؛ أما المصادر التاريخية ذكر كل من التَّمِيمي (ت٢٠٠هـ) في كتابه(الفتنة ووقعة الجمل)، والطبري (ت٣١٠هـ) في كتابه (تاريخ الأمم والملوك) عن خطبةٍ أخرى قالتها بالمربد في البصرة، وكانت على النحو الآتي: "عندما تَحَاشَى النَّاسُ وتحاصَبُوا وأَرْهَجُوا، فتكلَّمَتْ وكانتْ جَهْوَرِيَّةً يَعلُو صوتُهَا كثرةً، كأَنَّهُ صوتُ امرأةٍ جليلةٍ، فحمدتْ اللهَ –جلَّ وعزَّ– وأَثْنَتْ عليهِ، وقالتْ: كانَ الناسُ يتجنَّونَ على عثمان–رضي الله عنه– ويَزْرُون على عُمَّالِهِ...". انظر: التميمي، سيف بن عمر الأسدي، الفتنة ووقعة الجمل، جمع وتصنيف: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م–١٣٩٧هـ، ص١٢٤، انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، ط٥، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م، ١٧٣/٥–١٧٥.

([2]) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الخطب ٤/ ٥٢.

([3]) صَهَّ القَوْمَ وصَهْصَهَ بهم: زَجَرَهُمْ، ومعناه: اسكت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، قدم له: عبدالله العلايلي، وأعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة: يوسف خياط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت–لبنان، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م، مادة: صهصه،٤٨٧/٣.

مَن عصى ربَّه، مات رسول الله–صلى الله عليه وسلم– بين سَحري ونَحري[١] ، فأنا إحدى نسائه في الجنة، له ادَّخَرَني ربي، وخلَّصني من كلّ بُضْعٍ[٢]، وبي مَيَّز مؤمنكم مِن منافقكم، وبي أرخص الله لكم في صعيد الأبواء، ثم أبي ثاني اثنين الله ثالثهما..."[٣] .

إنَّ السببَ الرئيس لقول هذه الخطبة أنَّ الأُمَّةَ مرَّت بفترة اضطرابٍ بعدَ مقتلِ عثمان –رضي الله عنه–في داره في المدينة المنورة عام(٣٥هـ)؛ فبُويع علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–للخلافة، وفي تلك الأثناء دعا طلحة والزبير عائشةَ – رضي الله عنهم – للخروج معهما إلى البصرة؛ لمقصد الإصلاح، ودفع الخليفة علي بالأخذ بدم عثمان –رضي الله عنهما – [٤].

فابتدأت عائشة – رضي الله عنها– خطبتها آمرةً الجمهور بالصَّمتِ والإنصات في قولها:"أيُّها الناس، صَهْ صَهْ"، واستخدمت كلمة صَهْ [٥] لما لها مِن دلالة الأمر والردع؛ حيث يتَّضِحُ مِن السياق أنَّ الجمهور آنذاك يشوبه اللغو والخلاف، ومِن ثم أكّدتْ فكرة رئيسة تشير إلى شأنها وفضلها، بوصف نفسها أمًّا للمؤمنين، وزوجة الرسول –صلى الله عليه وسلم– ذاكرةً الدلائل على ما تقول، وهي –هنا– على سبيل التذكير والتأثير، لا على سبيل الإخبار في قولها: " إن لي عليكم حرمة الأمومة، وحقّ الموعظة، لا يتَّهِمُني إلا مَن عصى ربه"، ثم عدَّدتْ مناقبها عدًّا واضحًا ومؤثرًا

---

(١) السَّحْرُ ويحرَّكُ ويضمُّ: الرِّئَةُ، والنحر: نَحْرُ الصَّدْرِ: أعْلاهُ، وهو موضع القلادة. انظر: ابن منظور، لسان العرب مادتي: سحر، ونحر ١٠٧/٣، ٥٩٤/٦.

(٢) البضع: النكاح. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: بضع ٢٢٣/١.

(٣) نظرا لطول الخطبة اقتبست الباحثة منها ما يتوافق مع الموضوع والمضمون. انظر: الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الخطب ١٢٣/٤.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بتصرف ١٦٥/٥–١٦٨.

(٥) صَهَّ القَوْمَ وصَهْصَهَ بهم: زَجَرَهُمْ، ومعناه: اسكت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: صهصه ٤٨٧/٣.

في قولها:" مات رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بين سحري ونحري، فأنا إحدى نسائه في الجنة، له ادّخرني ربّي، وخلّصني من كلّ بضع..."، وقد اتَّسَمَ أسلوبُها هنا بالجمل المتضمنة أسلوب التوكيد الذي يؤدي وظيفة" تمكين الشيء في النفس، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المآخذ وكثير الفوائد" [١].

ومِن ثم تناولتْ ما مرَّتْ به الأمة في عهد أبيها مِن حوادث، كحرب الردة وغيرها، وكيف تحوَّلَ الأمرُ مِن فتنٍ واضطرابٍ إلى أمانٍ وسَلامٍ، إشارة منها للمتلقين بإمكانية تجاوز الخلاف، ثم أشارت بعد ذلك إلى عثمان –رضي الله عنه– دون ذكر اسمه في قولها:" وجَمَّعَ أعضادَ ما جَمَّعَ القرآن"[٢] وهي بذلك لفتتْ الانتباه إلى أعماله التي قام بها، وذكرتْ منها جَمْعَ المسلمين على مصحفٍ واحد، "وفي هذا التمييز توجيهٌ مِن المرسِل إلى المتلقِّي نحو فعل أو ترك أو اتخاذ موقفٍ من الموصوف" [٣]، فذِكْرُها لجمع المسلمين على مصحفٍ واحد إشارةً منها إلى أهمية اجتماع المسلمين على رأيٍ واحد وكلمةٍ واحدة، ومِن ثمَّ ختمتْ خطبتها بتوضيحِ سبب مجيئها إلى البصرة، وهو الإصلاح والتوجيه، ثم دعتْ لهم في نهاية المطاف بالخير في قولها:" وأنا نُصب المسألة عن مَسيري هذا، لم ألتمس إثمًا، ولم أُورث فتنةً أوطِئكموها، أقول

([١]) العلوي، يحيى بن حمزة بن علي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م، ٩٤/٢.

([٢]) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الخطب ١٢٤/٤.

([٣]) قادا، عبد العالي، الحجاج في الخطاب السياسي الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الخامس أنموذجًا "دراسة تحليلية"، دار كنوز المعرفة، عمان ، ط١، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م، ص ٢٥٨.

قولي هذا صِدقًا وعَدلاً، وإعذارًا وإنذارًا، وأسأل الله أنْ يصلي على محمدٍ، وأنْ يُخلفه فيكم بأفضل خِلافة المُرسلين"[١].

ويتَّصِلُ بالخطب أدبُ الوفادة الذي قال فيه الأندلسي:" فإنها مَقاماتُ فَضْل، ومَشاهد حَفْلٍ يُتخيَّرُ لها الكلامُ، وتُستهذَبُ الألفاظ، وتُستجزَلُ المعاني، ولابدَّ للوافد عن قومه أنْ يكونَ عميدَهم وزعيمهم الذي عن قُوتِه ينزعون، وعن رأيه يُصْدرِون؛ فهو واحدُ يَعدِلُ قبيلةً، ولسان يُعرب عن ألسنة " [٢].

وضمّن المؤلف في كتاب (الجمانة في الوفود) عشر نساء وفدن على معاوية – رضي الله عنه– وهي تدخل ضمن المحاورات البليغة التي ترتكز على" تبادل الحديث بين شخصين أو أكثر، مِن دون أنْ يقترن ذلك بحدَّةٍ أو عنف، ويفيد ذلك أنَّ المحاورة تبادلٌ هادئٌ للخطاب، يقتصرُ على المجاوبة والمراجعة في أغلب الأحيان " [٣]، وفي ضوء ذلك سأتناول وفادة أم سنان بنت خيثمة [٤] على معاوية – رضي الله عنه –في حوارٍ طويلٍ بينها وبين معاوية وأحد جلسائه، وملخّص القصة: أنَّ مروان بن الحكم حبس حفيدها في جناية؛ فذهبت إليه وتحدثت معه بهذا الشأن، فأغلظ مروان بن الحكم معها في الكلام، ومن ثم ذهبت إلى معاوية –رضي الله عنه–تشكوه، فابتُدئ الحوار بينهما مِن قِبل معاوية–رضي الله عنه– حول مناصرتها لعلي –رضي الله

---

(١) انظر: الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الخطب ١٢٤/٤.

(٢) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود ٢/ ٥.

(٣) الغرافي، مصطفى، الخطاب الحجاجي في البيان العربي" دراسة في التشكيلات والمقومات: المناظرة"، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد: ١٦٠، ١٦١، مركز الإنماء القومي – لبنان، المجلد: ٣٣، ٢٠١٣م، ص ١٠٧.

(٤) أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية، شاعرة من شواعر العرب. انظر: كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م. ٢٦٣/٢-٢٦٥.

عنه–وسألها عمن تميل له حُبًّا وولاءً بينهما، انتهى الأمر بأمر معاوية –رضي الله عنه– بالإفراج عن ابنها، وأمره لها براحلة مجهزة، وخمسة آلاف درهمٍ[١].

وابتدأ معاوية– رضي الله عنه–المحاورة قائلاً: "مرحبًا يا ابنةَ خيثمة، ما أقدمَك أرضنا؟ وقد عَهِدْتك تَشْتمِيننا وتَحُضَّين علينا عدُونَّا"[٢]، فرحّب بها، وخّصها بالاسم؛ ليظهر معرفته بها، وسألها سؤالًا استنكاريًا يتضمَّنُ الإشارة إلى موقفها منه في زمنٍ سابق؛ لغرضٍ ما في نفسه، فكان جوابها أنْ قالت:" إنَّ لبني عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأحلامًا ظاهرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يَسْفهون بعد حِلْم، ولا ينتقمون بعدَ عفو، وإنَّ أولى الناس باتباع ما سَنّ آباؤه لأنتَ" [٣]. كان من الممكن لسؤال معاوية –رضي الله عنه– لها أنْ يضعَ جوابها في جانب بيان موقفها من علي، وموقفها منه، فتذكر رأيها وموقفها عندما كانت تشمت وتحضّ عليه العدو كما وردْ، إلا أنَّ جوابها اتَّسم بعدم النفي والقبول؛ بل الثناء بجملةٍ من القيم الأخلاقية التي امتازت بها قبيلته؛ حيث " تمتع بنو عبد مناف بمركز الزعامة في مكة، وكانت لهم الرئاسة عليها؛ إذ كان لهم السقاية والرفادة، ولبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة" [٤].

فكان ثناؤها على قبيلته يحملُ جانب التخفيف من حدةِ سؤال معاوية –رضي الله عنه–، فقد خاطبت (الأنا) لديه بالثناء على قبيلته، والتأكيد على ما كانوا عليه، ولم تُناقض موقفها السابق لقناعتها. وتتجلى حدة انفعالها في جوابها حين قالت: (لأنت) بدلاً مِن (أمير المؤمنين)، فأجابها: نحن كذلك، ثم سألها عن أبياتٍ مِن الشعر قد

---

(١) انظر: الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٨٨/٢.

(٢) المصدر نفسه ٨٨/٢.

(٣) المصدر نفسه ٨٨/٢.

(٤) ابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، تحقيق وضبط وشرح: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار الخير، بيروت– لبنان، ط ٣، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، ١٠٩/١.

قالتها، وكان مضمونها ثناءً على علي–رضي الله عنه–، وحثًّا على نصرته، فقالت:" كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلفًا" [1].

اتَّسَمَ جوابُ أم سنان بالبلاغة في اختيار مفرداتها، والشجاعة في التعبير عن موقفها، فهي أقرَّتْ بما ورد من شعر، ولم تسترسل في بيان موقفها، أو حتى التحدُّثِ بشأن ما مضى مِن أحداثٍ؛ بل رَجت أنْ يكون معاوية خلفًا، وفي استخدامها الترجي بدلًا مِن التمني إشارةً إلى إمكانية حدوث ذلك، فحملَ مضمونُ جوابها جانبًا مِن التَّروِّي والاعتراف بمعاوية –رضي الله عنه– بأنَّه خيرُ خلفٍ في قولها: "يا أمير المؤمنين"، وفي جملة (أمير المؤمنين) مَثَّلَت مقامَ الخليفة مِن المرأة الوافدة (أم سنان بنت خيثمة)، الأمر الذي أضفى دلالةَ الاعتراف وقبول الآخر، وهذا –بدوره– ينفي عنها المعاني الضمنية التي دارتْ حولها المحاورة والمراجعة؛ إذ لا تناقض في موقفِها بين ما مضى، وبين ما أتى، وهي اللحظة الحاضرة في زمن حديثها.

ثمَّ شارك المحاورة طرفٌ ثالث مِن جلساء مجلس معاوية لم يُذكر اسمه، وذكر لها أبياتًا من الشعر تثني على عليٍّ –رضي الله عنه–وترثيه، وأنَّها لا ترجو خلافةً بعده [2]، وهذه إشارةٌ مِن القائلِ بعدمِ صدقها، واختلاف قولها مع موقفها كما ورد في مضمون الأبيات، فكان جوابها أنْ قالت:" يا أمير المؤمنين، لسانٌ نَطق، ولئن تَحقَّق فيك ما ظننَّا فحظُّك الأوفر، والله ماورَّثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء،

(1) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٨٨/٢.

(2) المصدر نفسه ٨٨/٢–٨٩.

فأدْحِض مقالتَهم، وأبعِد منزلتهم، فإنَّك إن فعلت ذلك؛ تزدد مِن الله قُربًا، ومن المؤمنين حبًا" [1].

وقد اتَّسم جوابها هنا بجانبين:

الأول: أنها أقرَّت بموقفها وبالأبيات الشعرية التي قالتها بأسلوب الماضي الذي قد فات ومضى، ثم توجهت للزمن الحاضر في المحاورة في قولها: " ولئن تحقَّقَ فيك ما ظننَّا فحظُّك الأوفر" دلالةً على عدم تناقض موقفها بين الماضي والحال.

والآخر: انتقادها للشخص المحاوِر الثالث، وهو أحد جلساء معاوية الذي شكَّكَ في موقفها مُذكرًا معاويةَ بأبياتٍ قالتها فيما مضى، بأنْ نبَّهت معاوية –رضي الله عنه–بأنَّ مجالسة هؤلاء تُسبب البغضاء، وهي إشارة منها بضرورة اختيار الجلساء الذين يحسنون النُّصح والتوجيه، ويعينون الخليفة على الخير والمعروف.

فشكّل هذا الجواب مِن أم سنان بنت الخيثمة منطلقًا لسؤال كرره معاوية –رضي الله عنه– ضمن مجموعة أسئلة مضتْ محاولًا فيها أنْ يعرفَ موقفها، أو يدفعها لتذكُّرِه صراحةً، فكان سؤاله تعجُّبِيًّا في قوله: "وإنك لتقولين ذلك! " [2]؛ أي: تعجَّبَ مِن موقفها تُجاه جلساء مجلسه، فضلًا لتقديمها النصيحة له، فتداركت أم سنان تعجبه واستفهامه قائلةً:" سبحان الله! والله ما مِثْلُك مُدِحَ بَباطل، ولا اعتُذِرَ إليه بكذب، وإنك لتعلمُ ذلك مِن رأينا، وضَميرِ قلوبنا، كان والله عليٌّ أحبَّ إلينا منك، وأنتَ أحبُّ إلينا مِن غيرك، قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم وسعيد بن العاصي "[3].

لقد استطاعت أم سنان أنْ تعبِّرَ عن رأيها وموقفها بشجاعة أدبية؛ إذ أحاطْت

([1]) المصدر نفسه٨٩/٢.

([2]) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٨٩/٢.

([3]) المصدر نفسه ٨٩/٢.

حجَّتها في تعبيرها عن رأيها بالقسم المؤكد للمعنى الذي دفعَ تعجب معاوية –رضي الله عنه– من رأيها، مؤكدةً له قيمةً أخلاقية، وهي أنْ جعلتْ من تصديقه لقولها وعدم تكذيبها فضيلة، فأعلتْ مِن مقامه؛ حيث إنَّ مِن صدق معاوية وورعه –رضي الله عنه– ألا يقبل برأيٍ باطلٍ، فأصبح تعبيرها عن رأيها فضيلةً في مجلس معاوية – رضي الله عنه–، أما عن ولائها وحبها لعلي–رضي الله عنه–فهي فاضلت بينهما، وجعلتْ مِن الحبِّ والولاء درجات، فعليٌّ أحبُّ إليها مِن معاوية –رضي الله عنهما–، ومعاوية –رضي الله عنه– أحبُّ إليها من غيره، وهذه دلالة منها لمعاوية –رضي الله عنه– بولائها له.

إنَّ الخطبَ التي ضمنها المؤلف للمرأة كانت تعرضُ مشاركتها في الرأي العام آنذاك والتوجيه بالنصح والرأي، والشكوى عند حصول تقصير أو مظلمة، فالمرأة الوافدة إما قَدِمَتْ للحاجة أو للشكوى [1]، والبعض منهنَّ وفدن بطلبٍ من الخليفة معاوية – رضي الله عنه – [2].

ومما يحسن الإشارة إليه أنّ محاورات المرأة الوافدة ارتكزتْ على ثلاثة أطراف، الطرف الأول والثابت في المحاورات جميعها هو: الخليفة معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه–، والطرف الآخر هو: الموجه إليه السؤال، وهي المرأة؛ أما الطرف الثالث وهو: مجلس الخليفة، ومَن يكون بصحبة الخليفة، ويتركزُ دوره بمراجعةِ الكلام للمرأة الوافدة حول خطبةٍ خطبتْ بها، أو أبيات مِن الشعر قد قالتها في زمنٍ مضى، ويشارك في ذلك الدور الخليفة.

([1]) انظر للأمثلة: المصدر نفسه ٢/٨٣، ٨٥،٨٨، ٩٠، ٩٦، ٩٩، ١٠٠.

([2]) انظر: المصدر نفسه ٢/ ٨٦، ٩١ ،٩٣.

وموضوع المحاورة هو مراجعة الوافدات لخطبهن في معارك مضت، وأبيات من الشعر يدور مضمونهما حول مناصرة علي –رضي الله عنه–وأحقيته في الخلافةِ من غيره؛ حيث إنَّ" الحركات السياسية لم تظفر بعددٍ من خطيبات النساء المفوهات مثلما ظفرت حركة –علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–ضد خصومه بصفة عامة، ضدَّ بني أمية متمثلةً في معاوية بصفة خاصة " [١].

وتتم المحاورة عبر مراحل [٢] : يُشكل السؤال عن الحالِ بصفةٍ عامة مِن قبل الخليفة لحظة بدء الحوار، ثم السؤال عن الرحلة إنْ كانت الوافدة قادمةً مِن مكان بعيد، وتكون المرحلة الثانية مرحلة المواجهة التي يتمُّ فيها سؤال الوافدات عن أبياتٍ مِن الشعر أو خطب في زمنٍ مضى تحملُ جانبًا من أفكارهن وآرائهن، ومن ثم مرحلة المدافعة، التي تبدو جليةً في تعبير المرأة عن رأيها. ومسوغات ذلك: أحقيَّةُ عليٍّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– بالخلافة، ومناقبه من عدل وصدق، ثم تشير الوافدةُ إلى أنَّ هذه الخطب والأبيات كانت في زمن مضى وانتهى، وتنتهي المحاورةُ بمرحلة الاختتام، وهي مرحلة يهدأ فيها الحوار، وينتهي بإكرام السائلة وإعطائها حاجتها [٣]، أو خروج المرأة الوافدة ورفضها التعبير عما تحتاج [٤].

---

(١) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية كتاب النثر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ص ١٥١.

(٢) للحوار مراحل، انظر: الباهي، حسان، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق–المغرب، ٢٠٠٤م، د.ط، ص٤١–٤٣.

(٣) انظر: الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٨٣/٢، ٨٨، ٨٦، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٦، ١٠١.

(٤) انظر: المصدر نفسه ٨٥/٢، ٩٩.

وقد مالت المرأة الوافدة بتجنُّبِ المواجهة في بدء الحوار، وطلب الإعفاء من الأسئلةِ صراحةً، كما حدث –على سبيل المثال– مع سودة بنت عمارة [١] عندما سألها معاوية–رضي الله عنه– عن أبيات شعرية قالتها لأخيها لنصرة علي–رضي الله عنه– وحثه على القتال، فأجابت :" يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبُتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نُسي"[٢] ، فأعاد عليها بأنَّ مقام أخيها لا ينسى؛ فأجابته بالإيجاب والاستشهاد ببيتٍ شعري على مكانته، ثم قالت:" وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي ممّا استعفيتُه " [٣]، كما طلبت دارمية الحجونية من معاوية –رضي الله عنه– إعفاءها من الجواب عندما سألها لِمَ أحببتْ عليًّا وأبغضته في قولها: " أو تُعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك، قالت: أما إذْ أبيتَ، فإني أحببتُ عليًا على عدله في الرعيَّة، وقَسْمه بالسويَّة، وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطَلَبُك ما ليس لك بحق..."[٤]. وقد تشير المرأةُ بأنَّه ماضٍ انتهى، فلا يُحبذ الحديث عنه؛ كما في جواب الزرقاء بنت عدي [٥] عندما سألها معاوية: "ألستِ الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصَّفَّين يوم صفِين تحضِّين على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟" [٦] فأجابته بقولها:" يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتر الذنب، ولم يعد ما ذهب، والدَّهر ذو غير، ومَن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعد الأمر"[٧] .

---

(١) سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية، شاعرة من شواعر العرب ذات فصاحة وبيان. انظر: كحالة، أعلام النساء بين عالمي العرب والإسلام،٢/٢٧٠-٢٧٢.

(٢) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٢/٨٣.

(٣) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٢/٨٤.

(٤) المصدر نفسه ٢/٩١.

(٥) الزرقاء بنت عدي الكوفية من ربات الفصاحة والبلاغة والعقل والرأي، ناصرتْ عليًّا بن أبي طالب يوم صفين. انظر: كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ٢/٣٢-٣٤.

(٦) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٢/٨٧.

(٧) المصدر نفسه ٢/٨٧.

ومما يحسن الإشارة إليه أنَّ نصوص المرأة الوافدة على معاوية–رضي الله عنه– اتَّسمتْ بتشابه المضمون؛ لتشابه الأسئلة والإجابات؛ حيث تتعلَّقُ الأسئلة بطاعة أمر القدوم، أو التعليق على الكبر والتقدم في العمر، وتذكير النسوة بما قُلنْه تحريضًا ضد معاوية –رضي الله عنه– نثرًا وشعرًا مِن قبل معاوية أو جلسائه [١]، ومن ذلك على سبيل المثال: تكرر عبارة: "ماتَ الرأسُ وبُتِر الذنبُ، فدَعْ عنكَ تذْكار ما قد نُسي"[٢]؛ حيث وردت في جواب سودة بنت عمارة عندما سألها معاوية –رضي الله عنه– عمَّ مضى، وشابهت هذه العبارة أيضًا عبارةً وردتْ في جواب الزرقاء بنت عدي:" ماتَ الرأسُ وبُتر الذنب، ولم يَعُدْ ما ذهبَ، والدَّهرُ ذو غِيَر، ومَنْ تفكّر أبصر، والأمرُ يحدثُ بعد الأمر"[٣]، وشابهت هذه العبارة إجابة بكارة الهلالية عندما علَّق معاوية– رضي الله عنه– عليها بأنَّها تغيرت،" فقالت: كذلك هو ذو غِيَر، مَن عاش كَبر، ومن مات قُبِر" [٤] .

ثانيًا: الرسائل:

جاءت رسائل المرأة ذات الاتجاه سياسي في كتاب العقد الفريد على النحو الآتي:

١– كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، وهو كتابٌ تضمَّن رسائل

---

(١) السري، أحمد، قراءة في كتاب أخبار الوافدات من النساء على معاوية، دراسات يمنية –اليمن، العدد: ٥٧، يونيو– صفر ١٩٩٨م–١٤١٩هـ، بتصرف ص ١٢٨.

(٢) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب الجمانة في الوفود، الوافدات على معاوية ٨٣/٢.

(٣) المصدر نفسه ٨٧/٢.

(٤) المصدر نفسه ٨٥/٢.

متصلة بالشؤون العامة آنذاك [1] والتي كانت غايتها:

أ- النصح والتوجيه وتبادل الرأي:

وبدا ذلك في الرسائل المتبادلة بين أم سلمة وعائشة-رضي الله عنهما[2]- ؛ حيث أرسلت أم سلمة -رضي الله عنها- إلى عائشة تنصحها بعدم الخروج إلى البصرة، وتبلغها بأنَّ البقاء في بيتها خير من خروجها، مستخدمة عدة أساليب لتوجيها والتأثير عليها؛ إذ كتبت: "مِن أُمِّ سَلمة زوج النبي -صلّى الله عليه وسلم- إلى عائشة أم المؤمنين: فإنِّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد، إنك سُدّة بين رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- وبين أمته، حجاب مضروب على حُرمته، قد جَمَّع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكّر خفارتك فلا تبتذليها. فالله من وراء هذه الأمة، لو علم رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- أنَّ النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أمَا علمتِ أنَّه قد نهاك عن الفراطة في البلاد؟ فإنَّ عمود الدين لا يثبت بالنساء إنْ مال، ولا يرأب بهنَّ إن انصدع، جهاد النساء غضَّ الأطراف،

([1]) انظر: رسائل المرأة: الأندلسي، العقد الفريد، كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم٤/٢٨٦- ٢٨٧، و

٣٠١- ٣٠٢ ، وانظر: المصدر نفسه، كتاب اللؤلؤة في السلطان، تحلُّم السلطان على أهل الدين والفضل إذا اجترؤوا عليه ١/٨٠.

([2]) وردت رسائل أم المؤمنين عائشة وأم سلمة -رضي الله عنهما- في كتابين، هما: (غريب الحديث) لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) وكتاب (بلاغات النساء) لابن طيفور، وقد وردَ بعضُ الاختلاف في بعض المفردات إلا أنها قريبة في المعنى، ويمكن القول: إنَّ الرسائل الثلاثة في الكتب: (غريب الحديث، بلاغات النساء، العقد الفريد) متطابقة مضمونًا، إلا أنه قد ورد في كتاب(غريب الحديث) بعد نقل المؤلف رسالة أم سلمة وعائشة -رضي الله عنهما- تعليقٌ منه بقوله:" حَدَّثَنِيهِ شيخٌ بِالريِّ من أهل الْأَدَب، ورأيتهُ عِنْد بعضِ الْمُحدثين، غيرَ أَنه كان لَا يُقيم أَلْفَاظه"، وكذلك ورد في كتاب (بلاغات النساء) تعليقًا من المؤلف على رواية ذكرها، فقال: "وفي نسخةٍ يروي بعد ذلك، فإنْ أَقُمْ ففي غيرِ جرح، وإنْ أخرج ففي إصلاحٍ بين فئتين من المسلمين متناجزتين، واللهُ المستعان، زعمَ لي ابن أبي سعد أنه صحَّ عنده أنَّ العتابي كلثوم بن عمر صنعَ هذين الحديثين، وقد كتبتهُما على ما فيهما". انظر: ابن قتيبة، غريب الحديث ٢/٤٨٦-٤٨٨، وابن طيفور، بلاغات النساء ص ١٠-١١.

وضمُّ الذيول، وقِصَر الوَهازة[1]. ما كنت قائلة لرسول الله–صلّى الله عليه وسلم– لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّةً قعودًا مِن منهلٍ إلى منهل؟ وغدًا تردين على رسول الله –صلّى الله عليه وسلم–، وأقسم لو قيل لي: يا أمُّ سلمة ادخلي الجنة، لاستحييتُ أنْ ألقى رسول الله –صلّى الله عليه وسلم– هاتكة حجابًا ضربه عليّ، فاجعليه سترك، ووقاعة البيت حِصنَك؛ فإنَّك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نُصرتهم؛ ولو أنِّي حَدَّثتُك بحديثٍ سمعته من رسول الله –صلّى الله عليه وسلم–؛ لنَهَشتني نهشَ الحية الرقشاء المطرقة، والسلام"[2].

رأتْ أمُّ سلمة أنَّ خروج عائشة –رضي الله عنهما–إلى البصرة خاطئٌ، وفضَّلتْ جلوسها بالبيت وعدم تدخلها؛ فنصحتها مُشَبِّهةً إياها بالسدة [3]؛ أي: أنها شبهت مكانتها ومقامها في الأُمة بالباب الذي ينبغي أنْ يكون مغلقًا وآمنًا، حتى لا ينفتح بابَ الخلاف بخروجها، والتشبيه –هنا–يخدم الفن النثري؛ إذ إنَّ الرسالة تُرسَل ثمَّ تُقرأ، فاجتمع في القراءة: التفكير والتصوُّر؛ تقريبًا للمعنى وتأكيده.

وبدتْ النَّصيحةُ منبثقةً مِن علاقةٍ متساوية بين أمِّ سلمة وعائشة–رضي الله عنهما–بوصفهما من أمهاتِ المؤمنين، وارتكزتْ رسالةُ أمّ سلمة –رضي الله عنها–على مبدأ ديني، وهو أنَّ المرأة لم يعهد إليها الجهاد، وعرضتْ لمفهوم جهاد المرأة الذي يتبدَّى في البقاء والستر وخفض الصوت، ومِن ثم عرضت لآليات إقناع مُبَيَّنَةً فضل جلوسها، مذكرةً لها برفض رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لذلك لو كان على قيد الحياة آنذاك، وهي بذلك تخاطبُ مكانة الرسول–صلى الله

(1) الوهازة الخَطْوُ، وقد تَوهَّز يتوهز إذا وَطِئ وَطأً ثقيلاً، والمقصود: قِصر الخطى. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: وهز٦/٩٩٢.

(2) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، يوم الجمل ٤/٣٠١-٣٠٢.

(3) باب الدار والبيت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: سدد٣/١١٨.

عليه وسلم–لدى عائشة–رضي الله عنها، وانتهتْ الرسالة بالتحذير والتخويف مِن الأثر المترتب على خروجها إلى البصرة.

وقد رفضتْ عائشة–رضي الله عنها–اتِّباع نصيحتها لوجهةِ نظرٍ أخرى، وهي أنَّ إصلاح أمر المسلمين وتوجيهم أفضل مِن البقاء وتسليم الأمور، فلا بدَّ مِن رأيٍ سديدٍ؛ لتوجيهم وإصلاح أمرهم، فأجابتها:

"من عائشة أُمِّ المؤمنين إلى أُم سلمة، سلامٌ عليك، فإنِّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد، فما أقبلني لوعظِك، وأعرفني لحقِّ نصيحتك، وما أنا بمعتمرةٍ بعد تعريجٍ، ولَنِعم المطلع مطلعٌ فَرَقْتُ فيه بين فئتين متشاجرتين مِن المسلمين، فإنْ أقعُدُ فعن غير حرج، وإن أمضِ فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه، والسلام"[1].

فبيَّنَتْ قبولها لنصيحتها ووعظها، لكن عبَّرتْ عن عزمها للخروج، وبينت فضل خروجها للإصلاح بين المسلمين.

وهنا اختلف رأيهما حول الخروج والإصلاح والتوجيه من عدمه، كما تمَّ تبادل الرأي والنصيحة فيما بينهما، باستناد كلِّ واحدةٍ منهما على مرتكزٍ رأتْ فيه حجة رأيها.

(1) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، يوم الجمل ٣٠٢/٤.

ب–توجيه أمر لقائد:

في خضمِّ الأحداث واختلاف الرأي آنذاك، وردَ أنَّ عائشة لمَّا قدِمتْ البصرة كتبتْ رسالةً إلى زيد بن صوحان [١]، وهي من الرسائل الحربية التي تهدفُ إلى توجيه الناس وتهدئتهم حتى وصولها، فكتبت:" مِن عائشة أُمّ المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان: سلام عليك؛ أما بعد، فإنَّ أباك كان رأسًا في الجاهلية، وسيِّدًا في الإسلام، وإنَّك من أبيك بمنزلة المُصلّي من السابق، يُقال: كاد أو لحق؛ وقد بلغك الذي كان في الإسلام مِن مصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون عليك، والعِيان أشفى لك من الخبر، فإذا أتاك كتابي هذا فثبّط الناس عن عليٍّ بن أبي طالب، وكُن مكانك حتى يأتيك أمري، والسلام"[٢].

فعمدت عائشة–رضي الله عنها–إلى وصفِ منزلة والد زيد بن صوحان في الجاهلية والإسلام، مُبينةً منزلته مِن أبيه مُشبِّهةً منزلته بمنزلة المصلي من السابق، وجعلته امتدادًا تاريخيًا، وجزءًا لا يتجزأ مِن أبيه بدلالة العبارة:" وإنك مِن أبيك بمنزلة المُصلي من السابق"، وهي بذلك تضيِّقُ الخيارات المتاحة مِن قبولٍ ورفضٍ أو محايدة؛ إذ "يرمي المتكلم في استعمال الشاهد إلى إشراكِ المخاطب في نفس الرأي الذي يعبِّر عنه، نظرًا إلى ما بينهما مِن ثقافة وقيمٍ مشتركة، يمثِّلُ الشاهدُ جزءًا منها" [٣]؛ لتضعه في جوابٍ وخيارٍ واحد، وهو الاستجابة لأمرها.

---

(١) زيد بن صوحان بن حجر العبديّ، من بني عبد القيس، من ربيعة، تابعي، من أهل الكوفة، له رواية عن عمرو وعليّ، كان أحد الشجعان الرؤساء، وشهد وقائع الفتح؛ فقطعت شماله يوم نهاوند، ولما كان يوم الجمل قاتل مع عليّ حتى قتل. انظر: الزركلي، خير الدين بن محمود، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٥٩/٣.

(٢) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، يوم الجمل ٣٠٢/٤.

(٣) رمضان، صالح، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم" مشروع قراءة شعرية"، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠١ م، ص ٥٠٥ –٥٠٦.

ت- طلب النصرة:

ويتَّضِحُ ذلك في رسالةِ نائلة بنت الفرافصة التي نقلها المؤلف" أنَّ نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان بن عفان كتبت إلى معاوية كتابًا مع النعمان بن بشير، وبعثتْ إليه بقميصِ عثمان مخضوبًا بالدماء، وكان في كتابها: مِن نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان؛ أما بعد، فإنِّي أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم مِن الضلالة، وأنقذكم من الكفر، ونصركم على العدو، وأسبغَ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة، وأنشدكم الله وأُذكِّركم حقَّه وحقَّ خليفته أنْ تنصروه بعزم الله عليكم، فإنه قال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [1]، فإنَّ أمير المؤمنين بُغِي عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حقَّ الولاية ثم أُتِي إليه ما أُتي لحقَّ على كل مسلم يرجو إمامته أنْ ينصُرَه، فكيف وقد علمتم قِدمه في الإسلام، وحُسن بلائه، وأنه أجابَ الله، وصدَّق كتابه، واتَّبع رسوله، والله أعلم به إذ انتخبه، فأعطاه شرفَ الدنيا وشرف الآخرة، وإني أقُصُّ عليكم خبره، إنِّي شاهدةٌ أمره كله، إن أهلَ المدينة حصروه في داره وحرسوه ليلَهم ونهارهم، قيامًا على أبوابه بالسلاح، يمنعونه مِن كلِّ شيء قدروا عليه، حتى منعوه الماء..." [2].

فتضمنت رسالتها الحثَّ على أخذ الثأر والنصرة لعثمان بن عفان-رضي الله عنه-مِن قَتلته، وكانت هي بمنزلة الشاهد على ما حصل لزوجها خليفة المسلمين عثمان بن عفان-رضي الله عنه-معبرةً عن شعور الخذلان والخيبة والتظلُّم لمعاوية –

([1]) سورة الحجرات، آية ٩.

([2]) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، في مقتل عثمان بن عفان٤/ ٢٨٦. نظرًا لطول الرسالة اقتبست الباحثة منها ما يتوافق مع الموضوع والمضمون.

رضي الله عنه–، فكانت رسالتها الشاكية وبعثها بالقميص المخضوب بدمائه مؤثِّرًا سياسيا، وجاءت الرسالة طويلة نوعا ما مخاطبة العقل والوجدان معًا، وغلبت عليها العاطفة التي أدَّتْ بدورها إلى الوصف، والشرح، والتوضيح، والتعليل.

ث–مناصحة خليفة المسلمين:

ويتبدَّى نصح أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–لخليفة المسلمين معاوية – رضي الله عنه–في رسالة موجزة جدًا؛ حيث كتبت:" أمَّا بعد، فإنَّه مَن يعملْ بمساخط الله يَصُر حامدُه مِن الناس ذامًّا له، والسلام" [1]، فحملتْ الرسالةُ عدةَ معانٍ متعددة في عبارة واحدة، وهي: النصح بالعمل، والامتثال لرضا الله لا الناس، وجاء الطباق بين (حامده) و(ذامًا) مُؤَدِّيًا وظيفةً إقناعيَّةً تُبيِّنُ ماهية نصيحتها.

ثالثًا: الجوابات المسكتة:

وهي من الأجناس النثرية القديمة التي أشار إليها بعضُ مؤلفي كتاب المختارات الأدبية العربية القديمة وأفردوا لها فصولا[2] ، وقد أفرد المؤلف لها بابًا في كتابه بعنوان(كتابة المجَّنبة في الأجوبة) ووصفها بأنَّها من" أصعب الكلام كلّه مَرْكَبًا،

([1]) المصدر نفسه، كتاب اللؤلؤة في السلطان، تحلُّم السلطان على أهل الدين والفضل إذا اجترؤوا عليه١/٨٠.* وردت الرسالة في كتاب: (المصنف في الأحاديث والآثار) لابن أبي شيبة (ت٢٣٥هـ) على النحو الآتي: "حدثنا ابن نُمير عن زكريا عن الْعبَّاس بن ذُريح عن الشَّعبِي قال: كتبَتْ عائشةُ إِلى معاوية: أَمَّا بعد؛ فإِنَّه مَنْ يَعْمَلْ بِسخَطِ اللَّهِ يُعَدُّ حَامِدُهُ مِن النَّاس ذَامًّا"، وعلَّقَ مُحقق الكتاب بأنه صحيح، وأشار في الهامش إلى كتب الحديث. انظر: ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد، المصنف لابن أبي شيبة، تحقيق: سعد ناصر عبدالعزيز الشثري، دار كنور إشبيليا، المملكة العربية السعودية–الرياض، ط١، ١٤٣٦هـ–٢٠١٥م، ١٤١/١٧–١٤٢.

([2]) قط، مصطفى البشير، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النثر العربي القديم، دار اليازوري العلمية ، عمّان–الأردن، د.ط، ٢٠٠٩م، بتصرف: ص١١٤.

وأعزُّه مَطْلبًا، وأغمضهُ مذهبًا، وأضيَقهُ مَسلكًا؛ لأنَّ صاحبه يُعجِّلُ مناجاة الفِكرة، واستعمال القريحة" [١].

ومن الجوابات المسكتة ما نقله المؤلف عن جواب امرأةٍ من الخوارج في ردّها على الحجاج؛ حيث "أُتي للحجاج بامرأةٍ من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجِلها القتلَ أيُّها الأمير، قالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيرًا من وزرائك يا حجاج؛ قال لها: ومن صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى، فقالوا: أرجِه وأخاه"[٢]، فضمَّنتْ المرأةُ موقف موسى –عليه السلام– وأخيه هارون مع فرعون، والغاية مِن تضمين القصة التخلُّص والتخفيف مِن حكم أصحاب الحجاج حين أشاروا إليه بقتلها، وإبداء رأيها في سياق مشابهٍ لحالها عُرِف مصيره فيما سبق.

بينما وصفتْ المرأةُ ضعف المخاطب فيما نقله الأندلسي بأن: " الحجاج قال لامرأة من الخوارج: والله لأعُدُّنكم عدًّا، ولأحصُدَنَّكم حصْداً، قالت: الله يزرعُ وأنت تحصد، فأين قُدرة المخلوق مِن الخلاق؟"[٣] فردَّتْ على الحجاج المتحدي بقدرته على إفنائهم كما في السياق الذي بدا فيه التهديد، بأنْ ضعَّفتْ من حجة قوته بمقارنته بالخالق القادر على كلِّ شيء، وهي في ذلك تبتغي وظيفة الإضعاف والتقليل مِن شأن التهديد والخوف.

ومِن صور الجوابات المسكتة: "أُتي الحجاج بامرأةٍ مِن الخوارج، فجعل يكلّمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلّمك وأنت لا تنظرين إليه! قالت: إني لأَستحي

---

(١) الأندلسي، العقد الفريد، كتاب المجنَّبة في الأجوبة ٥/٤.

(٢) المصدر نفسه ٢٦/٤.

(٣) المصدر نفسه ٢٦/٤.

أنْ أنظر إلى مَن لا ينظر الله إليه، فأمَرَ بها؛ فقُتلت"[1]. بدا هذا النصُّ يحملُ صورةَ المرأة المتمسكة بموقفها، ورفضها التعبير عن احترام أو إبداء مشاعر الرضا أو القبول بدلالة عدم نظرها إلى الحجاج، وهي ما أشعرتْ به الطرف الآخر بالتجاهل وعدم الاحترام، فكان السؤال بمنزلة توجيها للتهذيب مع مقام الخليفة، إلا أنَّها عبَّرتْ بحُكمٍ قطعي بمصير الشخص المخاطب وهو الحجاج بأنَّ الله لا ينظر إليه، بحسب خلفيتها المذهبية وإيمانها بذلك.

الخاتمة:

يتجلَّى مما سبق أنَّ فنون المرأة النثرية ذات الاتجاه السياسي بدتْ متنوعة المضامين، مُصوِّرة لأحداث تاريخيةٍ محدَّدَةٍ وواضحةٍ؛ حيث جاء جزءٌ كبيرٌ منها في عناوين واضحة للحديث عن التاريخ والسيرة كما في خطب ورسائل المرأة لتكوِّنَ وظيفةً تاريخيةً للكشف عن الأحداث آنذاك ومؤازرة مع النصوص الأخرى؛ لبيان السيرة التاريخية وعرض الأحداث، بينما بدتْ خطبُ المرأة ومحاوراتها وفنِّ الأجوبة المسكتة في عرضِ بلاغة وفصاحة العرب وأهمية هذه الفنون الشفاهية عند العرب بعرض نماذجَ للخطب، وجاءتْ نصوصُ المرأةِ مِن ضمن الأمثلة، إلا أنَّها قليلةٌ؛ لأنَّ كتاب العقد الفريد يمثِّلُ اتجاه تأليف مختارات أدبية. وقد أظهرَ فنُّ الخطابة والرسائل دور المرأة في الإصلاح، وخدمة الدِّين، وشجاعتها في التعبير عن رأيها بحكمةٍ وبلاغة، وبدتْ الرسائل محصورةً على نخبةٍ من النساء، كأمِّ المؤمنين عائشة، وأم سلمة –رضي الله عنهما – ونائلة بنت الفرافصة؛ إذ إنَّها تتطلَّبُ منزلةً خاصةً بالمرأة كأن تكون متعلمة، أو عالمةً، أو ذات منصب؛ لتضطلع بدور كتابتها وصياغتها؛ أمَّا

(1) المصدر نفسه ٤/٢٦.

الجوابات المسكتة فتمركزَتْ حول بلاغة المرأة الخارجية وتعبيرها عن رأيها بصراحة، وينبثقُ دورُ المرأة السياسي ومشاركتها في الرأي العام آنذاك من دورها الديني المؤدي إلى الإصلاح والتوجيه، أو الدور الاجتماعي كالحثِّ على النصرة أو الشكوى. وعلى أية حال فإنَّ النصوص تملكُ قيمةً أدبيَّةً في كونها تمثِّلُ بلاغة المرأة وفصاحتها، ووظيفةً تاريخيَّةً تكشفُ عن دور المرأة ومكانتها آنذاك، إضافةً للقيمةِ السرديَّةِ المسلِّية التي تكتنف قارئ كتب المختارات الأدبية، والتي أشار إليها المؤلف الأندلسي في مقدمة كتابه بحذفه الأسانيد مِن الأخبار تخفُّفًا وإيجازًا؛ لأنَّها أخبارٌ مصنفةُ سعى من خلالها لشمول الموضوعات، وتصرَّفَ في تصنيفها لتُمتِّعَ القارئ عند الاطلاع.

المصادر والمراجع:

- الباهي، حسان، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق–المغرب، ٢٠٠٤م، د.ط.
- التميمي، سيف بن عمر الأسدي، الفتنة ووقعة الجمل، جمع وتصنيف: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م–١٣٩٧هـ.
- رمضان، صالح، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم" مشروع قراءة شعرية"، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠١ م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- السري، أحمد، قراءة في كتاب أخبار الوافدات من النساء على معاوية، دراسات يمنية –اليمن، العدد: ٥٧، يونيو–صفر ١٩٩٨م–١٤١٩هـ.
- الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية كتاب النثر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.
- ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد، المصنف لابن أبي شيبة، تحقيق: سعد ناصر عبدالعزيز الشثري، دار كنور إشبيليا، المملكة العربية السعودية–الرياض، ط١، ١٤٣٦هـ–٢٠١٥م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، ط٥، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م.
- ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، صححه وشرحه: أحمد الألفي، د. مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة،١٣٢٦ هـ –١٩٠٨ م.

- العلوي، يحيى بن حمزة بن علي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م.
- الغرافي، مصطفى، الخطاب الحجاجي في البيان العربي" دراسة في التشكيلات والمقومات: المناظرة"، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد: ١٦٠، ١٦١، مركز الإنماء القومي – لبنان، المجلد: ٣٣، ٢٠١٣م.
- قادا، عبد العالي، الحجاج في الخطاب السياسي الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الخامس أنموذجًا "دراسة تحليلية"، دار كنوز المعرفة، عمان، ط١، ١٤٣٦هـ –٢٠١٥م.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم(١٣٩٧هـ)، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، ط١، بغداد، مطبعة العاني.
- قط، مصطفى البشير، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النثر العربي القديم، دار اليازوري العلمية، عمّان–الأردن، د.ط، ٢٠٠٩م.
- كحالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٣٩٧هـ–١٩٧٧م.
- ابن منظور، لسان العرب، قدم له: عبدالله العلايلي، وأعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة: يوسف خياط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت–لبنان، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.
- ابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، تحقيق وضبط وشرح: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار الخير، بيروت– لبنان، ط ٣، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

○ الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، حققه وشرحهُ وعَرف أعلامهُ: محمد التونجي، دار صادر–بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م.